

مجلة أنثروبولوجية (الأوبان) المجلد 21 العدد 01 2025/01/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

التصور الأوغسطيني للعالم ومكانة الإنسان المسيحي في التاريخ والحضارة خلال العصور الوسطى
The Augustinian conception of the world and the status of the Christian
man in history and civilization during the Middle Ages

ط. د. إيمان فاضلي *

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة - الجزائر -

i.fadeli@univ-emir.dz

تاريخ القبول: 2024/12/23

تاريخ الاستلام: 2024/11/30

ملخص:

نقصد في هذه الورقة لدراسة النظرة المسيحية للإله و الإنسان و العالم و بالتالي معرفة العلاقة بين المسيحية كدين و بين الحضارة و العمران البشري؛ أي أننا بصدد البحث في الأنثروبولوجيا المسيحية و كيف تنظر للذات (الإنسان) المنتجة للحضارة و العمران البشري ، و سنتخذ من رؤية القديس أوغسطين نموذجاً لهذه الدراسة ؛ باعتبار أنه كان صاحب النظرة الدينية المسيحية المسيطرة طوال القرون الوسطى (5م - 13م) و التي كانت سبباً مباشراً في وصم هذه الحقبة من التاريخ بالظلام ؛ حيث عملت رؤيته على تعطيل العقول و الإرادات البشرية و حتى الحياة ذاتها في كل البقاع التي سادت فيها ، محللين مبادئه الستة (6) التي كونت هذه النظرة و أهمها (العناية أو اللطف الإلهي) التي فسر بها حركة التاريخ و وضع قوانين جديدة للخلاص في كتابه (مدينة الله و مدينة العالم) بعد المستجدات التي شهدتها العالم المسيحي حينها و أهمها إتحاد السلطتين الدينية و الزمنية ثم اغتيال الإمبراطورية الرومانية و غزوها من قبل القبائل الجرمانية سنة 410م بالإضافة إلى استفحال الهرطقات (الآريوسية - البيلاجية - الدوناتية) التي هددت صرح الديانة المسيحية ذاتها من الداخل بسبب التسامح السياسي معها ، و بالتالي سنحدد طبيعة العلاقة بين الدين المسيحي كروية للعالم و بين الذات المسيحية المنتمة إليه في العصور الوسطى حسب القديس أوغسطين ، مشيرين إلى نماذج عن الآثار التي نتجت عن تلك الرؤية على قيمة الإنسان و على الإنتاج الحضاري له خلال هذه الفترة من التاريخ الغربي.

الكلمات الدالة: القديس أوغسطين ، العناية و اللطف الإلهي ، الأنثروبولوجية المسيحية عند أوغسطين ، نظرية السياسة الدينية عند أوغسطين .

* المؤلف المرسل: إيمان فاضلي ، الايميل: i.fadeli@univ-emir.dz

Abstract:

In this paper, we intend to study the Christian perspective on God, humanity, and the world, and consequently understand the relationship between Christianity as a religion and human civilization and urbanization. In other words, we are delving into Christian anthropology and how it views (the human) that produces civilization and urbanization. We will take St. Augustine's vision as a model for this study, considering that he held the dominant Christian religious perspective throughout the Middle Ages (5th-13th centuries AD), His vision worked to disable human minds, wills, and even life itself in all the places where it prevailed, analyzing his six (6) principles that formed this perspective, the most important of which is (divine providence or kindness) through which he interpreted the movement of history and established new laws for salvation in his book (The City of God and the City of the World) after the developments that the Christian world witnessed at that time, we will thus determine the nature of the relationship between Christianity as a worldview and the Christian self belonging to it in the Middle Ages according to Saint Augustine.

Keywords: Saint Augustine, divine providence and grace, Christian anthropology according to Augustine, Augustine's theory of religious politics.

المتن:

مقدمة:

يهدد مصير البشرية اليوم مجموعة من المخاطر سببتها بشكل رئيسي الحضارة الغربية الحديثة القائمة على مركزية الإنسان الغربي و على المادية المفرطة ، و قد ساهم في بناء هذا التصور عندها بشكل رئيسي تخليها عن الدين كمهذب و مربي للإنسان - عن طريق تقوية الجانب الروحي فيه و ربطه بالعالم الآخر و بالوجود المتعالي (السمائي) - و عوضا عن ذلك ربطته بالحياة الدنيا مُنكرا كل حياة أو وجود آخر و نغني تغير رؤيتها و تصورهما للعالم و قيمة الإنسان فيه ، و هذا التصور جعل الإنسان الغربي الحديث يذل قصارى

جهده ليحقق كل رغباته و ملذاته قبل أن يموت ساعيا وراء السعادة بمختلف أوجهها ، و هذا ما جعله أيضا يستبيح كل المحارم و يُحلل لنفسه كل الرغائب لينال أكبر قدر ممكن من تلك اللذة المادية و المعنوية ، لذا أردنا في هذا البحث الوصول إلى تحديد العلاقة بين (الدين) كرؤيا عامة و متكاملة للعالم و الإنسان في وجوده و مصيره و بين (الحضارة) باعتبارها منجزا بشريا ناتجا عن ذلك التصور سواء في ازدهارها أو اندثارها و سقوطها و ذلك بالعودة إلى واحد من أصول و أسباب الأزمة التي تعانيها الحضارة الغربية المادية الشرسة اليوم و هذا الأصل متعلق بالديانة المسيحية الكاثوليكية التي نظر لها القديس أوغسطين في القرن 5م في محاولة لتحديد تصوره للعالم و لمكانة الإنسان فيه (الأنثروبولوجيا المسيحية) و علاقة هذا التصور بالركود و الموات الحضاري الذي عاناه الإنسان المسيحي خلال القرون الوسطى مما جعلها توصم بالظلام ، و رغم محاولات الإصلاح الديني الداخلية التي تعرض لها المذهب الكاثوليكي إلا أن الأوضاع لم تتغير كثيرا مما حذى بالحضارة الغربية - قطاع مهم منها - إلى اختيار القيام بحركة إصلاحية خارجية تمثلت في التخلي عن الدين و نبذه في مجتمعاتها خاصة لأسباب حجرة على العقل و محاربته للتفكير النقدي الذي يضمن التجديد المستمر في المجتمعات البشرية من خلال العمليات الديالكتية للبناء و النقد و التجديد ، فهذا الذي أدى إلى زعزعة مكانة الدين في الحضارة الغربية و استبداله برؤى و تصورات فلسفية - في معظمها سوفسطائية- تُراعى فيها مكانة الإنسان و قيمته و أهميته كمنتج و مستهلك للحضارة فيما يُعرف بالتيار الإنساني (Humanism) أي أنها انتقلت من الإفراط إلى التفريط ، و ما نقصده من البحث بالضبط هو الوصول إلى النقطة التالية : تحديد العلاقة بين الدين المسيحي وفق التصور الأوغسطيني و بين الحضارة و العمران البشري خلال فترة سيطرة هذا المذهب على العالم الغربي طوال القرون الوسطى (ق 5م - 13م) من خلال الإجابة عن التساؤلات التالية :

- من هو القديس أوغسطين ؟ و ما تصوره عن العالم و الإنسان فيه ؟
- ما مصادر أفكاره الفلسفية و اللاهوتية ؟
- كيف ساهمت الظروف خلال القرن الخامس الميلادي في سيطرة أفكاره على العالم المسيحي الغربي طوال ألف سنة تقريبا ؟

- و ما الآثار التي خلفتها تصورات القديس أوغسطين للإنسان و فعله في التاريخ على الحضارة الغربية خلال العصور الوسطى و ما بعدها ؟ .

I. القديس أوغسطين و تكوينه الفكري و منجزاته الفكرية (يعقوب، 2008، صفحة 290):

القديس أوغسطين غني عن التعريف في العالم المسيحي الغربي و هو من قديسي الكنيستين الشرقية و الغربية و آخر آباء الكنيسة جميعا ، خصص له المؤرخ الكنسي (فيليب شاف Schaff Phillip) المجلد (1) من السلسلة الأولى لموسوعته (آباء نيقية و ما بعد نيقية Nicene and Post-Nicene Fathers) (Phillip, p. 74) ، كما أشار إليه المؤرخ الكنسي الغني عن التعريف (جوهانس كواستن Johannes Quasten) في كتابه (علم الآباء Patrology) (Questen, pp. 342-462) حيث خصص الفصل (6) من المجلد الرابع من موسوعته للتعريف به و الفصل (7) منه للتعريف بأصدقائه و أهمهم (أوروسوسوس) و كذا أعدائه و أهمهم (بيلاجيوس) ، كما اعتبره الفيلسوف (برتراند راسل) (راسل، 2010، صفحة 53) في كتابه (تاريخ الفلسفة الغربية) من الرجال الأربعة الذين يُطلق عليهم (أساتذة الكنيسة الغربية) و هم أمبروز ، جيروم ، أوغسطين و جريجوري الكبير ، حيث لم تتمكن المسيحية من إنجاب رجال يضاهون جيروم و أمبروز و أوغسطين إلا بعد ألف سنة تقريبا لذا بقي هؤلاء القديسون مراجع موثوقة طيلة القرون الوسطى المظلمة ، يقول برتراند راسل : " .. و لبث أمبروز و جيروم و أوغسطين خلال العصور المظلمة و العهد الوسيط مرجعا يوثق به ؛ فهم الذين حددوا الأوضاع التي صُبَّت الكنيسة في قالبها ؛ فنقول على وجه التقريب أن القديس أمبروز هو الذي حدد لرجال الدين فكرتهم عن العلاقة بين الكنيسة و الدولة ، و قدم القديس جيروم للكنيسة الغربية إنجيلها اللاتيني (الفولجاتا) و كان لها الحافز نحو الرهبنة في الأديرة ، و أما القديس أوغسطين فهو الذي صاغ للكنيسة لاهوتها الذي ظل حتى الإصلاح الديني ، و كذلك صاغ شطرا كبيرا من الآراء التي اعتنقها فيما بعد كالفن ، و لن تجد رجالا برزوا هؤلاء الأساتذة الثلاثة في مدى تأثيرهم في مجرى التاريخ " (راسل، 2010، صفحة 54)، لدينا اليوم مصدران أصيلان عن مؤلفات القديس أوغسطين أحدهما أوغسطين نفسه و الآخر هو بوسيديوس (Possidius) تلميذه و مدون سيرته الذاتية التي هي أساس كل ما نعرفه عنه اليوم ، و التي تُعتبر من الأدب العالمي معنى و مبني ؛ و هي

(الإعترافات The Confessions) فهي تتجاوز كونها سردا لسيرة حياة عادية حيث حاول فيها القديس أوغسطين التركيز على أهم الأحداث في حياته و التي رأى أنها تؤكد نظريته في العناية و الرحمة الإلهية بالإنسان و كذا نظريته في اللطف الإلهي التي تتضمن الإختيار من أجل الخلاص ؛ إذ رسمت عناية الله بأوغسطين له الطريق من الهلاك إلى الخلاص ؛ إذ قرأ حياته على ضوء التفسير المسيحي اللاهوتي للأحداث التاريخية و توصل فيها إلى فكرة أن الإنسان لا يستطيع بقوة عقله و إرادته الخاصة الوصول إلى الحكمة التي توصله بدورها إلى السعادة و النجاة من الفساد الموروث بل لابد من توجيه إلهي أساسه الكتاب المقدس و الإيمان بالمسيح مخلصا و بالخضوع لسلطة الكنيسة التي رأسها و حجر زاويتها المسيح فلا خلاص عنده خارج الكنيسة .

من المولد إلى إعتناق المسيحية (354-386م) : ولد أوريليوس أوغسطينوس سنة 354م في طاغاست (سوق أهراس حاليا) في شرق الجزائر لأبوين وثنيين من السكان المحليين ، إعتنقت أمه مونيكا المسيحية و اعتبرت لاحقا قديسة في الكنيسة الكاثوليكية لأنها جعلته يهتدي إلى المسيحية حيث كان يلقب ب(ابن الدموع) إلا إن أباه ضل على الوثنية و لم يُعتمد إلا في آخر أيامه أو ربما مات على الوثنية ، تأثرت حياة أوغسطين بأوضاع الإمبراطورية الرومانية التي اعتنقت المسيحية قريبا فقد عاصر أوغسطين فترة حكم الإمبراطور يولييانوس المرتد أو الجاحد (361-363م) الذي عمل على إعادة الوثنية إلى ازدهارها في الإمبراطورية الرومانية -على الأقل في قسمها الغربي الذي آل إليه - و لحسن الحظ أن المنية عاجلته حيث لم يحكم سوى ثلاث سنوات قبل أن ينهض الإمبراطور المسيحي (ثيوديسيوس العظيم 379-395م) الذي أصدر المراسيم لصالح تثبيت المسيحية و جعلها دين الدولة الرسمي و الوحيد ، كما أنه عاصر فترة غزو القبائل الجرمانية للأراضي الرومانية و انتزاعها منها حيث استولى القوط الغربيون على روما بزعمامة (آلارك) سنة 410م ، و آخر كارثة شهدتها هي غزو الوندال الآريوسيين لشمال إفريقيا قادمين من شبه جزيرة أيبيريا و الذين قتلوه في كنيسة هيبو سنة 430م قبل أن يستولوا أيضا على قرطاج عاصمة مقاطعة إفريقيا ثم يُحرقوا شمالا نحو إيطاليا و يستولوا على القسم الجنوبي لفترة من الزمن قبل أن يختفوا من التاريخ ، و قد أحدث البرابرة الجرمان الآريوسيون خسائر فادحة بالمسيحية الغربية الكاثوليكية في إفريقيا إذ تحولوا من مضطهدين إلى مضطهدين ، قبل أن ينهض من الشرق الإمبراطور

البيزنطي جاستنيان (527-565م) الذي عمل على استعادة أراضي الإمبراطورية و توحيدها من جديد تحت راية الديانة المسيحية إلى أن انقسمت الكنيسة على نفسها بسبب الجدالات اللاهوتية العقيمة و بسبب الرغبة في سيادة العالم المسيحي بين بيزنطة و روما و لا يزال هذا الإنشقاق بين الكنيستين الشرقية و الغربية إلى اليوم .

درس أوغسطين في جامعة مادورا (مداوروش - سوق أهراس) الخطابة و اللغة اللاتينية و المنطق و البلاغة ثم رحل إلى قرطاجة (قرب العاصمة تونس اليوم) ليدرس الحقوق ثم درّس بها البلاغة و الخطابة ، تأثر بكتابات الفلاسفة القدماء اليونان و الرومان و تعتبر قراءته لمحاورة (هورتنسيوس) ل(شيشرون) الفيلسوف الوثني الروماني سنة 373م فاتحة لطلب الحكمة و احتقار الحياة الدنيا و شهواتها خاصة الشهرة و الغنى ، و فعلا بدأ رحلته العقلية للبحث عن الحقيقة و ثارت رغبته لدراسة الفلسفة و التأمل في القضايا الإلهية فانجذب إلى الفلسفة الغنوصية المانوية و كان سماعا فيها لمدة (9سنوات) لكن بعد أن تعمق فيها اكتشف ضلالها و تناقضاتها و عجزها عن الإجابة عن كامل أسئلته ، رحل إلى روما سنة 383م و منها انتقل إلى (ميلان) عاصمة الإمبراطورية الغربية في شمال إيطاليا و عمل بها أستاذا سنة 384م للبلاغة و الخطابة ثم التحقت به أمه و ابنه و هناك بدأ رحلته في طلب الحكمة الحقيقية حين بدأ يتردد على حلقات التعليم التي كان يقيمها القديس (أمبروز) أسقف ميلان للموعوظين رفقة أمه و ابنه .

من الإعتناق إلى التكريس (386 - 396م) : تردد على الكنيسة و انضم إلى جماعة الموعوظين عند القديس (أمبروز) الذي كان أسقف ميلان و من خلال شروحه للكتاب المقدس فهم حقائق المسيحية كما تعلم قاعدة ذهبية من (أمبروز) و هي أن الطريق الوحيد إلى المسيح هي الكنيسة حيث كان يردد دائما : (لا خلاص خارج الكنيسة) ، كما تأثر بالقديس (أنطونيوس) راهب الشرق العظيم و أب الرهبانية المسيحية كلها من خلال سيرته التي كتبها عنه القديس (أثناسيوس) و التي نقلها إلى الغرب في القرن الرابع للميلاد و اشتهرت هناك و لشدة تأثيره بهذه الشخصية ادعى أن السماء نادته بطريقة فهمها هو وحده ليلتحق بزمرة المؤمنين و المصطفين كما فعلت مع (أنطونيوس) و غيره من القديسين ؛

إذ سمع و هو في الحديقة في (ميلان) نداء يقول : (خذ و اقرأ ، خذ و اقرأ) - حسب ما ذكره عن نفسه في الإعترافات - فأخذ الكتاب المقدس و فتحه فوقعت عيناه على الفقرة من الرسالة إلى رومية (13:14-13) : "لنسلك بلباقة كما في النهار لا بالبطر و السكر لا بالمضاجع و العهر لا بالخصام و الحسد بل ألبسوا الرب يسوع المسيح و لا تصنعوا تدبيراً للجسد لأجل الشهوات " ، و هنا يقول أن كل الشكوك تبددت أمامه ، و قد قبل التعميد على يد القديس (أمبروز) سنة 387م رفقة ابنه (أديوداتس) الذي ما لبث أن توفي هو و والدته (مونيكا) في نفس السنة التي عمد فيها ، فعاد القديس (أوغسطين) وحيداً إلى شمال إفريقيا أين اختار الرهبنة و جمع حوله مريدين و بنى ديراً معروفاً إلى اليوم في هيبو (عنابة حالياً) قرب كنيسة القديس أوغسطين (كنيسة هيبو سابقاً) ، ثم اختير قسيساً سنة 389م ليترقى مساعداً للأسقف (فاليريوس) سنة 395م ، ثم رُسم أسقفاً لكنيسة هيبو سنة 396م بعد وفاة أسقفها (فاليريوس) ، يدين القديس (أوغسطين) للقديس (أمبروز) بتكوينه المسيحي اللاهوتي حيث تعلم على يديه اللاهوت الشرقي السكندري و الكبادوكي فجمع في لاهوته بين اللاهوت اليوناني و اللاهوت الإفريقي (ترتولينوس و كبريانوس و غيرهم) حتى أصبح أيقونة عصره و قديس كل العصور .

من التكريس إلى الموت 396-430م : منذ تكريسه أسقفاً لكنيسة هيبو سنة 396م عكف - إضافة إلى مهامه كأسقف و رئيساً دير هيبو - على إعادة النظر في جميع كتاباته التي ألفها قبل تعميده على المسيحية و خاصة بين سنتي 426-427م ، يقال أنه مرض مرضاً شديداً توفي بعده سنة 430م و يقال أن الوندال الأريوسيين هم من قتلوه سنة 430م .

مؤلفاته : لدينا مصدران يضمنان قائمة مؤلفاته أحدهما أوغسطين نفسه و الآخر تلميذه و مدون سيرته (بوسيديوس Possidius) ، كان من أكثر الكتاب غزارة في الإنتاج و التأليف سواء قبل عماده أو بعده و أهم مؤلفاته (الإعترافات) التي سبق و أشرنا إليها ، كتبها بين سنتي 397-404م و هي تقص سيرته حياته الخاصة حتى عام 387م موضحاً فيها صراعه المؤلم للوصول إلى الراحة مع الله و في الله ، و تتجلى فيها دقة وصفه للأحداث و لاختلاجات نفسه و عاطفته ، أما أهم مؤلفاته الفلسفية كتاب

(المعلم) كتبه نحو سنة 389م تناول فيه سيكولوجية التعليم و الدرس متخذاً من تعليم ابنه مثالا على ذلك

أعماله الدفاعية : ينتمي القديس أوغسطين إلى آباء الكنيسة المدافعين الذين كتبوا في الدفاع عن المسيحية ضد الوثنية و ضد الفلسفة اليونانية و ضد الغنوصية بتياراتها و أخيراً ضد الهرطقات الداخلية و العقائد غير القويمة التي اخذت بالتطور داخل رحم المسيحية ذاتها ، فكانت أهم مؤلفاته الدفاعية (مدينة الله) كتبه بين سنتي 413-426م و هو من أروع ما كُتب في الدفاع عن المسيحية ضد الوثنية مستعملاً للحوادث التاريخية و تفسيرها كنسيا كأمثلة و أدلة على صدق المعتقد الديني المسيحي أين برع اوغسطين في الرد على اتهام المسيحيين بالمسؤولية عن الكوارث التي حلت بالعالم الروماني خلال القرن الرابع و الخامس للميلاد ، فاستطاع بمحاذقة قلب الموازين لصالح المسيحية ليتحول السحر على الساحر بأن أصبح المسيحيون هم سبب نجاة العالم الوثني من غضب الله ؛ فقد عرض في القسم الأول من الكتاب للصراع القائم و الدائم بين مدينة الله و مدينة الشيطان أي بين الكفر و الإيمان ، أما القسم الثاني فيعرض لتاريخ الخلاص في المسيحية موضحاً أن تجسد ابن الله (الوسيط) قد شق الطريق بين المدينتين كدليل على حب الله للبشرية حيث افتداهم بارسال ابنه الوحيد ليموت على الصليب مخلصاً البشرية من براثن الخطيئة الأصلية لذا وجب الإيمان بهذا التاريخ و بالمسيح كمخلص للإلتحاق بتلك المدينة (مدينة الله) .

أعماله العقيدية : (في الثالوث المقدس) كتبه بين سنتي 399-412م ثم أكمل أجزاءه الأخيرة سنة 420م شرح فيه العقائد المسيحية و أهمها العقيدة في الله ، (في البدع) كتبه سنة 428م دحض فيه بدعة (ماني) خاصة في نقطة الثنوية التي تقوم عليها (الخير - الشر) ، و كتب ضد الدوناتيين موضحاً حقيقة الكنيسة و الأسرار الكنسية و خاصة سر المعمودية ، ثم كتب ضد البيلاجية معالجا طبيعة الإنسان و الخطيئة الأصلية و التبرير و النعمة ، و لما تعرض لبعض الإنتقادات بسبب آرائه في النعمة و قضاء الله الأبدي عاد للكتابة في آخر حياته موضحاً اللبس فيها .

أعماله التفسيرية : أهمها (في التعليم المسيحي) كتبه بين سنتي 396-397م وضح فيه الشروط الواجبة لدراسة الكتاب المقدس دراسة مفيدة و قوانين تفسير الكتاب المقدس و أهمها و أخطرها)

الخضوع لتعاليم الكنيسة) ، كما وصلنا منه مجموعة من العظات حيث تنسب إليه 363 عظة أصلية إضافة إلى الرسائل (270 رسالة) أهمها الرسائل التي تبادلها مع القديس (جيروم) وكذا الرسالة (رقم 211) التي وضع فيها قانون الحياة الرهبانية لدير الراهبات في هيبو .

II. آراء القديس أوغسطين اللاهوتية : ترتبط آراء أوغسطين ببعضها إرتباطا وثيقا و هي مبنوثة في ثنايا كتاباته و مواعظه الكثيرة و من خلال الجمع بينها نستشف رؤيته و تصوره للعالم و الإنسان و العلاقة بينهما و التي يحددها الإطار العام للمسيحية و تدبير الله و عنايته بخلقه منذ خلق آدم إلى غاية تجسد ابن الله الوحيد (المسيح) ، أما منظومته اللاهوتية هذه فكانت نتاج تأملات طويلة و بحوث عديدة فقد جمع فيها محصلة قراءاته و تكوينه الفكري الفلسفي و اللاهوتي طيلة حياته ، لكن المميز فيه أنه كان من اللاهوتيين الموفقين بين الفلسفة اليونانية و العقائد المسيحية أين حاول إيجاد علاقة بين العقل و النقل على غرار هذا التيار و لكن الدارسين أكدوا أنه " يقدم الإيمان (النقل) على المعرفة (العقل) و يجعله أساسا له و بداية الطريق .. فالإنسان لا يفهم ليؤمن و إنما يؤمن ليفهم ، فالبحث عن المعرفة لا يمكن أن يوصل إلى الإيمان .. فالترتيب الصحيح أن يبدأ بالإيمان و منه ينطلق البحث للوصول إلى إدراك الحقيقة " (ماركوس، 1997، صفحة 25) أي أنه كجميع الفلاسفة المتدينين يقدم الإيمان على العقل و لا يحكم العقل على أسرار الإيمان فهو يؤمن بالعقائد الدينية ثم يبرهن على صحتها و هذه هي دائرة الهرمنيوطيقا المغلقة التي تميّز العصور الوسطى ؛ إذ أخضع الفلسفة للمسيحية و شرح العقائد المسيحية بالفلسفة متبعا في ذلك سبيل سلفه (كلمنت السكندري) و (أوريغانوس) و مدرسة الإسكندرية و مخالفا لاهوتيي إفريقيا قبله في هذه النقطة؛ (تروتوليانوس) و (كبريانوس) الذين رفضا العلاقة بين المسيحية و الفلسفة اليونانية تماما ، كما أنه أفاد من قراءته لأفلاطون (محاورة فيدون) خاصة في نسخته الأفلاطونية المحدثة في شروحه لمسائل في المسيحية ، و قرأ رسائل أفلوطين و التي كان لها الفضل في فهمه لمسائل عقلية أفادته لاحقا في فهم العقائد المسيحية ، و كذا أخذ فكرة الثنوية و الإزدواجية من المانوية الفارسية و على أساسها قسم العالم إلى مدينتين (مدينة الله — مدينة الشيطان) ، و طبيعة الإنسان إلى طبيعتين (مادية — روحية) ، و السلطة إلى سلطتين (دينية —

زمنية) ، كما استفاد من اللاهوتيين المعاصرين له فأخذ الرهبنة الشرقية و أصولها من (جيروم) و أساس العلاقة بين الدولة و الكنيسة من (أمبروز) لكنه ورث الشدة و الصرامة و التزمت المميز للعقل الإفريقي من سلفه (ترتوليانوس) و(كيريانوس) ؛ فكان القديس أوغسطين بذلك مزيجاً فريداً من الأفكار و المعتقدات التي شكلت العقل المسيحي الكاثوليكي حيث سيطرت منظومته الفكرية -التي كانت تدرس في المدارس و الجامعات- على العقل المسيحي الغربي طيلة العصور الوسطى الأولى و حتى بعد أن بدأت الإصلاحات داخل الكنيسة الغربية كان أوغسطين هو أساسها إلى غاية عصر النهضة ، لذا كانت لآرائه خاصة في الله و الحياة و الإنسان و التاريخ و الحضارة الخطوة و السيطرة على الحضارة الغربية طيلة العصور الوسطى و إلى اليوم لأنها ببساطة تمثل الفلسفة المسيحية الكاثوليكية (راسل، 2010، صفحة 11) ، و يختصر القمص تادرس ملطي آراءه في نقاط (يعقوب، 2008، صفحة 293) :

- يعزو أوغسطين إلى (الإرادة الإلهية) وجود الشر و الخير و المؤمنين و غير المؤمنين و الناجين و المالكين .
- الشر ليس جوهرًا و إنما هو حرمان و نقص و فساد تعانيه المخلوقات (ردا على الثنوية التي تعتبره إله) .
- يرى أن إرادة الله الخلاصية محدودة (الخلاص متعلق بلطف الله و نعمته على الانسان) ، الأمر الذي لم يلق قبولا لدى الكنيسة الجامعة .
- يرى أن (الخطيئة الأصلية) شملت الجنس البشري كله و لذلك أصبحت البشرية كلها (جماعة هالكة) بسبب انتقال الخطيئة من جيل إلى جيل بالتناسل (موروثة) و لكن بالمعمودية تزول الخطيئة الأصلية و عواقبها على المعمد (بعد العماد تزول آثار الخطيئة الأصلية فقط أما الخلاص و نيل الملكوت فمتوقف على إرادة الله و نعمته) .

و قد تبلورت آراؤه اللاهوتية و نظرتهم إلى العالم و الحياة البشرية في نظريتين: **النظرية العقديّة** التي حدد فيها علاقة الإنسان المسيحي بالله و بالعالم و الحياة و هدفه من الحياة و مصيره المحتوم

، ثم نظريته السياسية و التي حدد فيها نوع السلطة التي يجب أن يخضع لها الإنسان المسيحي (سلطة الكنيسة) لتحقيق الخلاص فلا خلاص خارج الكنيسة .

نظريته العقدية : من خلال هذه النظرية نستطيع استنتاج قيمة الإنسان و منزلته في المسيحية ؛ كان للقديس أوغسطين نظرة خاصة إلى الخطيئة الأصلية و الخلاص و شروطه ، و هي قائمة على نظرية عقدية متكونة من (6) عناصر (الخضيري، 1998، الصفحات 81-101) مترابطة عضويا تحدد دور البشر في صناعة تاريخهم و تبدأ من ضرورة الإيمان ب(اللطف الإلهي) و هي توجيه الله للإنسان إلى الخير لأنه لا يعرف بقوته أن يختار أو يفعل الخير لنفسه فالله هو المحرك الوحيد للتاريخ ، ثم يليها الإيمان ب (الخطيئة الأصلية) التي سببت القطيعة بين الله و الإنسان و كان من آثارها الخطيئة تشوه صورة الإنسان أمام الله ثم العقاب بالشقاء و الألم و الموت إلى الأبد التي هي عقيدة (الجزء) و (علم الله المسبق) بكل الحوادث و تديره خلاص الإنسان و الإيمان ب(القدر) يرتبط الجزء و علم الله المسبق و القدر ببعضها حيث وجد أوغسطين نفسه بين أمرين فإذا ربط اللطف الإلهي بالجزاء بأن جعل اللطف نتيجة حتمية لأفعال البشر جعل الله مجبرا على مجازاة المحسن على إحسانه مما يقيد حريته و إرادته المطلقتين و هذا مرفوض عقديا ، و إذا لم يخضع لطف الله إلا لإرادة الله فهذا فيه نوع من الظلم للبشر و عدم وجود العدل ، و هذا أيضا قول مرفوض عقديا ، إلا أنه اختار الأمر الثاني كي لا يسيء إلى صفات الله المطلقة و قد أكد نظريته هذه بنصوص كتابية تؤكد أن اللطف الإلهي ليس جزاء على أفعال البشر و أن الله عادل و إرادته مطلقة ، و هنا نصل إلى النقطة الحاسمة : أن لا فضل و دور للعباد ؛ فكل المقادير محددة مسبقا في علم الله و تديره و لن يتحقق الخلاص إلا ليكون دليلا على رحمة الله و الله حر في اختيار البعض للملكوت و استبعاد البعض الآخر و كل هذا من لطفه و هو عادل و فعال لما يريد و هنا يمكننا التساؤل عن حجم الإرادة الإنسانية في مقابل الإرادة الإلهية ثم (الإرادتان : الإلهية و الإنسانية) و التي تخضع فيها إرادة الإنسان لإرادة الله تماما فالإنسان يكون حرا كلما تمت عبوديته لله و تسليمه بقضائه و قدره ، و أما ما يميز نظرة القديس أوغسطين إلى الإنسان في هذه النظرية هو اعتباره للإنسان تجسيدا للنقص و الفساد و الهلاك و الفشل و انه بدون الخضوع للعناية الإلهية فإنه لن ينجح و لن يفلح و مهما بلغ من التقدم و التطور فإن مآله إلى الهلاك ، و كل هذا النقص الذي تشوهت به الطبيعة البشرية حدث بسبب القطيعة

مع الله بسبب الخطيئة الأصلية فالإنسان وريث الخطيئة و نتائجها و لا يمكن له العودة إلى الصورة الأصلية الكاملة له التي هي صورة الله و مثاله إلا بالخضوع التام لإرادة الله و عنايته (عقيدة جبرية)، و قد كانت نظريته الأنثروبولوجية أيضا رد فعل على ما كان سائدا خلال عصره من فلسفات غايتها الوصول إلى سعادة الإنسان في هذه الحياة فقد كان متأكدا من " أن الإنسان لم يعرف التفلسف إلا ليصل إلى السعادة .. فالوصول إلى السعادة كان هدف كل المدارس الفلسفية و لكنها اختلفت فيما بينها في الوسائل و السبل التي تنتج هذه السعادة " (ماركوس، 1997، صفحة 19)، و أهمها الفلسفات و المدارس الفلسفية المتبعة في الدولة الرومانية ذاتها و التي كانت تقدر الإنسان -رغم اعتزازها بالآلهة و مكانتها- إلا أنها تولي إهتماما أكبر للإنسان الذي تؤمن بقدراته على التقدم و التطور و العطاء و المعرفة و تسعى جاهدة للرفاهية و الإزدهار و هذا ما تشهد عليه الآثار المدهشة التي خلفتها الحضارة اليونانية -الرومانية : الطرق -نظام الصرف الصحي - السدود و قنوات المياه - المسارح و مرافق الترفيه - العلوم و المعارف - القوانين المختلفة ، و قد أشار شيشرون و بلوتارك إلى أهمية الإنسان و تغافلوا بالمستقبل الأمر الذي لم توافق عليه المسيحية كلها و خاصة المذهب الأوغسطيني الذي كان مذهباً زهدياً متأثراً بالرهبة الشرقية ، الأمر الثاني الذي يؤمن به الرومان نظريتهم في العدالة فقد كانوا أكثر أهل الأرض تنظيماً و خضوعاً للقانون كما كانوا مشجعين للنجاح و الطموح عند الإنسان معترزين بالشهرة و المجد و الغنى -الأمر الذي كتب ضده في زمن لاحق الفيلسوف (شيشرون) الكتاب الذي أثر في القديس (أوغسطين) - و قد انتقد أوغسطين نظرتهم للحياة التي كان متبعاً لها ردحا من الزمن في كتابه (مدينة الله) شارحا النظرة المسيحية إلى الإنسان كوريث لخطيئة آدم التي ارتكبها في المكان الوحيد الذي يمكن أن يعيش فيه بسعادة و هو الجنة أما الحياة في الأرض فهي عقاب و مكان للألم و الشقاء -حسب الكتاب المقدس - و إن أراد العيش بسعادة من جديد يجب عليه العمل على العودة إلى الجنة و ذلك بقبول الخلاص في المسيح - و قد طور أوغسطين هذه العقيدة و توسع في شرحها فلسفياً منتقدا فيها الأفكار الفلسفية عن التقدم و السعادة على الأرض فالبشر على الأرض كلهم سواسية (طبيعة بشرية واحدة فاسدة و ناقصة من ناحية الاخلاق و العقل العاجز عن الوصول للحقيقة و خضوعه للشهوة = تكوين الإنسان لا يكمن أن يحقق له السعادة و النجاح لأنه ملوث في الأساس بالخطيئة ، حتى أنه اعتبر التفكير في تحقيق السعادة على الأرض بقدراته الخاصة من أكبر حماقات التي وقع فيها البشر، و بالنسبة له فالنجاحات التي حققها البشر مؤقتة و مآلها إلى

الزوال و الفشل متخذاً من الإمبراطورية الرومانية ذاتها نموذجاً لتلك النجاحات و هذا الفشل ، فالإنسان لا يمكن أن يصل إلى الكمال و لا أن يوصف به ، و بالإضافة إلى انتقاده للفلاسفة الرومان فقد انتقد أيضاً المسيحيين من قبله الذين آمنوا و لو بشكل بسيط بأن الإنسان قادر على تحقيق السعادة و الكمال في هذه الحياة و دون اتباع طريق المسيح ، كما أنه فصل هذه النظرية في ردوده على الهرطقة البيلاجية و أساسها أن من اختاره الله للملكوت (مدينة الله) يخلص و أما من لم يختره فلا يخلص - بكل بساطة - و هذا الأمر لا يغيره قدر أو دعاء أو عمل لأن صاحب القرار وحده هو الله و على الإنسان التسليم فقط لأنه هنا تتحقق إرادة الله و تتوقف إرادة الإنسان ، وهذا ما ثار ضده الراهب البريطاني بيلاجيوس الذي رفض هذه المفهوم و تفسيره و مبرراته التي تعود الى عقيدة الخطيئة الاصلية ، حتى انه انكر عقيدة الخطيئة الاصلية من شدة حنقه على هذه العقيدة الجبرية في الخلاص ؛ و قال ان للإنسان القدرة على ان يخلص نفسه و يتجاوز حتلى مرتبة الملائكة بعمله كما يمكن ان ينحط الى مراتب ادنى من مرتبة الشياطين بعمله ايضا لانه مخير و له ارادة حرة و ليس مسيرا و هو بهذا خالف عقيدة التبرير بالإيمان و العمل التي قال بها بولس و كذا التبرير بالإيمان وحده التي قال بها اوغسطين بان منح الانسان الارادة الحرة في اختيار الطرق الذي يريده مع تحمل العواقب في آخر المطاف كما انه حرر الانسان من برائن الخطيئة الاصلية و وراثته الانسان لها ، تقوم الأنثروبولوجيا المسيحية (سيداروس، 2013، صفحة 29) على أمرين ؛ إن الإنسان مخلوق على صورة الله و شبهه (تشریف و إمكان العودة للصورة الأصلية) ثم ثانياً على عقيدة (التجسد) تجسد الإله في صورة الإنسان (إمكان تاله الانسان و المشاركة في الطبيعة الإلهية الطاهرة) مما يعني أن نهاية التاريخ بدأت بهذا التجسد الذي يمثل الخطوة الأخيرة لإنقاذ البشرية من السقوط الذي حدثت فيه بالخطيئة الأصلية ، و هذا يعني ان الإنسان يستطيع أن يرتقي و يعود إلى منزلته فيما يُعرف بعقيدة التآله (ثيوسيس) باتباع المسيح و تصديق أنه تجسد لخلاص البشر ، تجسد ليعلم الإنسان التآله و العودة الى الطبيعة الاولى الاصلية الالهية ، و قد تبني القديس (أوغسطينوس) هذه العقيدة و قرأها في ضوء المستجدات التاريخية التي شهدتها المسيحية خلال القرن الخامس الميلادي ليقرر ان غرض الإنسان الوحيد من هذه الحياة هو (الخلاص = التآله = العودة للأصل السماوي الراقي) لذا نجد أن أفكار اوغسطين الأكثر جوهرية بشأن الإنسان يمكن بيانها في النقاط التالية (طلعتي، 2022، صفحة 65) :

- الإيمان بقدرة العقل البشري على اكتشاف الحقائق الدينية و إدراك التعاليم الدينية .
- الإقرار بمحدودية العقل البشري لذا يحتاج للتكامل و الاكتمال بالإيمان الديني .
- إيكال النفس البشرية للطف الله من اجل إدراك الحقيقة و الحصول على السعادة
- تحليل الأبعاد الوجودية للإنسان الى عناصر بسيطة من قبيل : الادراك ، الإرادة و الخير
- علاقة الحب بين روح الإنسان و بين الله
- الحصول على معنى الحياة من خلال الوصول إلى الحقيقة و الوحدة

لذا كان لهذه الأفكار تميزها الذي كانت له نتائجه أيضا على العصر كله و هي إجمالا تعلقها بالنظرة المسيحية للتاريخ و حركته و دور الإنسان فيه الذي لا يعدو (التسليم و الرضى و الإيمان المطلق و الإنصياع التام لإرادة الله و تديره ليتحقق الخلاص و النجاة و يحل ملكوت الله لا بأفعال البشر و إنما بإرادة الله وحده رغم أنه يمكنهم فهم هذه الحكمة بقوة عقولهم إلا انه لا يمكنهم فعل شيء حياله إلا الإيمان بقدرة الله الفائقة و حبه المطلق للبشرية و تديره الحكيم لشؤونهم و خلاصهم كما يمكنه أيضا عدم إنقاذهم و تركهم يهلكون و هذا أمر لا يمكن لأحد الاعتراض عليه أو تغييره

نظريته السياسية : قلنا أن أوغسطين هو نتاج عصره متأثر بأحداثه و قد كانت له رؤيته الخاصة تجاه كل ما كان يمر به العالم آنذاك ؛ قبل القرن الرابع للميلاد كانت المسيحية ديانة مضطهدة و منبوذة في العالم كله حتى أن المؤمنين بها اختاروا الإعتزال و السكن في الجبال و الصحارى و الوديان على مخالطة الناس بسبب كونهم منبوذين من جهة و من الجهة الأخرى أنهم كانوا مترفعين عن مخالطة الخطاة و الوثنيين منتظرين لحلول الملكوت و عودة المسيح قريبا فلم تكن لهم دولة و لا وطن محدد و لا كيان سياسي يحتمون به إلا (الكنيسة) التي كانت حينها في أبسط صورها مكان للعبادة و الإجتماع لا غير ، إلا أن الأوضاع تبدلت خلال القرن الرابع و بعده بداية بمرسوم (ميلانو 312م) مرسوم الإعتراف الأول بالمسيحية و الذي أصدره الإمبراطور قسطنطين ، فازدهرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية ثم أصبحت الديانة المفضلة ثم الديانة الرسمية للإمبراطورية في نهاية القرن الرابع مع (ثيودوسيوس العظيم ، ت 395م) الذي أغلق المعابد الوثنية و منع التقديم للآلهة الوثنية ، فأصبح للمسيحية كيان قوي سول لها الرغبة في السيطرة

و الحكم ، لكن لم يمر وقت طويل حتى عادت شرارات المصائب تلمع هنا وهناك بسبب رفض الوثنيين منح المسيحية تلك الأفضلية بين ديانات الإمبراطورية بل ومحاربة الديانات الأخرى- التي وصفها رجال الدين المسيحيين بالوثنية والمهرطقات- و بمجرد أن توفي (ثيودوسيوس) انقسمت الإمبراطورية المسيحية على نفسها في عهد ابنه ، الاول مؤيد للآريوسية في الشرق و الآخر مؤيد للأرثوذكسية في الغرب ، فارتبطت المسيحية إرتباطا وثيقا بالإمبراطورية (السلطة الزمنية) و أصبحت تؤثر فيها و تتأثر بها و لكن الكثير من الظروف ساهمت بأحداث مشاكل زعزعت استقرار الإمبراطورية السياسي و الإقتصادي و الديني و العسكري الأمر الذي سمح للقبائل الجرمانية بغزو روما سنة 410م و إحداث الخسائر الفادحة بها فانطلقت الأصوات الثائرة ضد الأوضاع معتبرة المسيحية هي سبب كل المآسي التي تعانيها الإمبراطورية و أن الآلهة العتيدة لروما غاضبة لما آلت إليه الأوضاع من احتقار لها ، و في المقابل كتب رجال الدين المسيحيون في الدفاع عن المسيحية شرقا و غربا و أهمهم على الإطلاق في هذه الفترة القديس أوغسطين في كتابه الخالد الذي يعتبر دستور القرون الوسطى و لا يزال إلى اليوم أيقونة الفكر السياسي الديني (مدينة الله) الذي يصنف ضمن نظريات فلسفة التاريخ ؛ أي النظريات المفسرة لحركة التاريخ و هي مبنية على العقيدة تماما إذ أنه يفسر التاريخ في إطار الدين (العقيدة) ؛ و هذا ما يسمى (التفسير الديني للتاريخ) أ و (نظرية العناية الإلهية) و التي يثبت فيها رجل الدين من خلال استقراء الحوادث التاريخية أن عقيدته صحيحة و حاملة وحدها للحقيقة و محققة للسعادة ، متخذة منها منارات لإثبات تدخل الله في التاريخ و تقديره لأحداثه و كذا الإستدلال بها على رضى الله أو سخطه على عباده ، و لكن المميز في هذه النظرية هو اعتبارها الله المحرك الوحيد للتاريخ وفق تدبيره و حكمته و إرادته المطلقة أما عمل الإنسان فيه فيقتصر على التلقي و التسليم لأمر الله فقط ، أي أن أوغسطين يوافق الفلاسفة السابقة التي تعتبر الإنسان دمية في يد الآلهة إذ تنفي قدرته على التدخل في التاريخ أو صناعته أو تغييره ، و قد شرح القديس (أوغسطين) فلسفته في التاريخ و قيمة الإنسان فيه في كتابه (مدينة الله و مدينة العالم) الذي استعمل فيه (مفهوم الإزدواجية) (الخضيري، 1998، صفحة 133) الذي هو عماد لاهوته كله ؛ إذ يقسم العالم إلى قسمين متضادين تماما ، مدينة الله يسيرها (الحب الإلهي) و (العناية الإلهية) و جوهرها خير كله مهما بدا غير ذلك ، أما (مدينة الإنسان أو العالم) فقد أخذت سماتها من صفات الإنسان ذاته و طبيعته الناقصة و الفاسدة إذ لا يمكنها أن تصل إلى الكمال و السعادة مهما بذلت من

جهد ، و هي مدينة فاسدة نھايتها الدمار و الهلاك مهما بلغت من ازدهار و تفوق ، ثم اتخذ من مدينة (روما) و الإمبراطورية الرومانية نموذجاً للتدليل على نظريته هذه ؛ إذ رأى أن سقوط (روما) المدينة العظيمة المتحضرة في يد القبائل الجرمانية البربرية المتوحشة عقاب لها على العصيان و عدم الرضوخ التام للمسيحية لأنها سمحت للوثنيين و المهرطقين بالعيش بسلام فيها - السياسة الدينية الرومانية المتسامحة - بالإضافة إلى مدهانة و قبول المهرطقين (الآريوسيين خاصة) كشركاء في الدين المسيحي القويم و هذا خطأ فلا مذهب صحيح في المسيحية إلا المذهب الكاثوليكي ، و ليس من سبيل لمدينة الإنسان من النجاح و الفلاح إلا بالعودة إلى الله أين تخضع السلطة الزمنية للسلطة الدينية لتقودها هذه الثانية إلى بر الأمان ، و قد وضع في كتابه هذا اللبانات الأولى لسيطرة الكنيسة (المؤسسة الدينية الممثلة لله على الأرض) على السلطة الزمنية و على الحياة كلها طيلة القرون الوسطى الأولى و الثانية ، فكانت كلماته التي قالها في تلك الفترة المحكومة بطروفيها التاريخية نصوصاً مقدسة لرجال الدين الجشعين الذين حكموا بها طيلة القرون الوسطى ، و حتى حينما ثار الإنسان الغربي ضد الدين المسيحي في عصر النهضة و ما بعده فهو في الحقيقة ثار ضد المؤسسة الدينية التي تدعي تمثيل الدين و ليس ضد الدين في حد ذاته ، و قد توالى الحركات الإصلاحية الداخلية و تعددت و كان مصدرها أقوال القديس (أوغسطين) ذاته ؛ إذ أعاد كالفن مثلاً قراءة أوغسطين و طور نظرياته العقيدية و السياسية قصد الإبقاء على العلاقة قائمة بين السلطة الدينية و السلطة الزمنية و صهرهما في بوتقة واحدة لجعل الإنسان المسيحي يفلح في الحياتين ، و في الأخير يمكن القول أن المسيحية تفسر حركة التاريخ لاهوتياً (أوزبورن، 2018) وعلى أساس الإيمان بوجود (العناية الإلهية) التي تتحكم في التاريخ البشري و تسيره و أساسها الاول (أفلاطون) الذي أخذ عنه القديس (أوغسطين) ما يمكن تلخيصه في نقطتين هما (جيلسون، 2011، صفحة 210):

* عالم المثل هو الأصل و النموذج الذي يجب أن يسعى الإنسان للعودة إليه ، أما هذا العالم المادي فهو مشوه و السعي فيه يكون باحتقاره و احتقار الجسد ذاته لانه جزء منه و ذلك بالزهد فيه لتستطيع الروح الإرتقاء و التحرر من سجنه الحقيقير و الإلتحاق بأصلها الإلهي .

* الأحداث التاريخية ترجمة لإرادة الله أمّا البشر فهم أدوات في يد الله و لا يمكنهم إلا تحقيق مشيئته في التاريخ و هذا هو مبدأ (العناية الإلهية) ، لأن البشر لا يملكون أن يفعلوا الخير و لا الشر لأنفسهم فيحتاجون لعناية الله بهم لأنهم مسيروا تماما و غير مخيرين أبدا (عقيدة جبرية) .

و اذا قرأنا التاريخ البشري في القالب المسيحي فإننا سنقسم التاريخ البشري إلى أربعة فصول تُفسر على ضوءها كل الحوادث التاريخية و الهدف من وجود الإنسان و مصيره و كيفية تحقيقه لسعادته الحقيقية من وجهة النظر المسيحية و هذا التقسيم و التفسير لا يلزم أحدا غير المسيحيين :

- الأول يعالج مسألة سقوط آدم في الخطيئة الأصلية و سقوط البشرية معه و التي سببت الشقاق في علاقة الله بالبشر ، و هذا الفصل يحدد طبيعة الإنسان - الفاسدة و النزعة للنقص و الشر و عدم الكمال - بعد السقوط لأنه ورث الفساد عن الإنسان الأول آدم .

- الثاني دخول الله في التاريخ بفعل التجسد (المسيح) و تقديمه ذاته قربانا لإرضاء ذاته و تخليص البشرية من براثن الخطيئة الأصلية و تبعاتها و إعادة العلاقة إلى صلاحها بين الله و البشر ، و هذا الفصل يشرح الطريقة الوحيدة لاستعادة الصورة الأولى للإنسان التي خلق عليها في الجنة (صورة الله و مثاله) النقية الكاملة الخالدة و الخيرة بالإيمان بالمسيح ابن الله المتجسد و المخلص الوحيد للإنسان و بالخضوع للكنيسة .

- الثالث تبشير العالم بالإنجيل و بقرب حلول ملكوت الله (مملكة المسيح) التي سيشارك فيها كل من آمن بالمسيح إلها و ابنا لله و مخلصا للبشرية يشرح كون الكنيسة هي طريق الخلاص الوحيد فلا خلاص خارج الكنيسة .

- الرابع يناقش عودة المسيح الثانية إلى العالم ليحاسب الناس و يحكم مملكته في أورشليم الجديدة على الأرض و يملؤها عدلا (الراشد، 2020، صفحة 233) ، و افتتاح مملكة السماء المتصفة بالكمال و المقرونة بأتم البركات ، هذا الفصل هو الأمل الذي يجب على كل مسيحي مخلص أن يؤمن به و يصلي ليكون جزءا منه (من المختارين الممثلين نعمة) .

III. آثار سيطرة آراء أوغسطين على الغرب : أول ما نبدأ به هو مقارنة لمصطلح الحضارة ، و على أساس تلك المقاربة يمكن أن نقيم الحضارة في القرون الوسطى ؟ حسب الدكتور حسين مؤنس في كتابه (الحضارة) يقول : " الحضارة في مفهومها العام هي ثمرة كل جهد يقوم به الإنسان لتحسين ظروف حياته سواء أكان المجهود المبذول للوصول إلى تلك الثمرة مقصودا أم غير مقصود و سواء أكانت الثمرة مادية أو معنوية ، و بهذا تكون الحضارة مرتبطة أشد الارتباط بالتاريخ الذي هو الزمن الذي تحتاجه تلك الثمرات لتطلع أي أنها جزء من التاريخ و نتاج له " (مؤنس، يناير 1978، صفحة 13) و يضيف أن موضوع التاريخ و باتفاق المؤرخين هو " دراسة التجربة الإنسانية على وجه الأرض أيا كان نوعها " (مؤنس، يناير 1978، صفحة 64) ، و بالتالي فإن الحضارة الإنسانية هي تجربة الإنسان على الأرض ؛ ماذا حقق و ماذا قدم لوجوده و ماذا أعد لمصيره ، أما التاريخ فهو العلم الذي يتولى دراسة هذه التجربة لاستخلاص العبر و القوانين منها ، فإن أسقطنا هذا الكلام على كل المنظومات الدينية نجد أنها تضم الخطوط العريضة ذاتها و لكنها تختلف نسبيا في التفاصيل ؛ فالموضوع سينطلق حتما من مكانة الإنسان و قيمته في الرؤية الدينية و علاقاته المختلفة مع الله و مع الإنسان و مع العالم (الكون) ، كما ستضم تلك النظرة الحدود المسموح للإنسان بالعمل ضمنها و الأهداف المفروض عليه الوصول إليها في حياته دون الخروج عن حدود تلك الرؤية .

❖ آثار الأنثروبولوجيا المسيحية على قيمة الإنسان المسيحي خلال العصور الوسطى : تميزت نظريات أوغسطين بشأن الإنسان خلال العصور الوسطى بأمرين رئيسين :

- تقديس المؤسسة الدينية (الكنيسة) التي نصبت نفسها (خليفة الله على الأرض) ، و جعلت كل الحياة تسير و تتوقف بأمرها و هي اختارت أن توقف الحياة و تدخل الإنسان المسيحي سجننا لا منفذ منه إلا حلول الملكوت لأنها اعتبرت أي ارتباط بالدنيا و ملذاتها أو محاولة العيش بكرامة كُفرا خاصة في العصر الوسيط الأول أين سيطرت الكنيسة و نظام البابوية على الدولة الكارولنجية منذ القرن 8م (عهد شارلمان و أبنائه) فتحكمت في كل شيء و أصبح البابوات في روما أساس كل شيء منهم تبدأ الحياة و إليهم تنتهي لم تستطع أوروبا خلال سيطرة الكنيسة (البابوية) إحداث أي تغيير أو تقدم و حضارة في أي مجال من المجالات خاصة أن الامبراطورية الرومانية المقدسة كانت تسعى فقط لتنصير

أكبر عدد ممكن من الناس و ضم جميع الممالك و الدول إلى مجالها الجغرافي و السياسي و هذا سبب الحروب و المجازر و نشر الفقر و الجهل و الخوف و احتقرت حياة الإنسان و كل هذا نتج عن النظرية التي وضعها أوغسطين (أرغموهم على الدخول) في فترة كانت فيها المسيحية محتاجة للسيطرة على زمام الحكم لتعيش و تستمر فكان حكمه هذا طوقا قيدت به المسيحية عقول و وجود الإنسان الغربي طيلة ألف سنة .

- استعباد الإنسان المسيحي و إخضاعه لرغبة المؤسسة الدينية (الكنيسة) لأنها وحدها ستضمن النجاة أو الهلاك لهذا الإنسان مما أنتج إنسانا زاهدا تماما في الحياة إنسانا بعيدا عن إنتاج الحضارة و المعرفة و حتى بعيدا عن الحياة ذاتها فالخوف من غضب البابوية أو الوقوف في وجهها سيطر على القلوب و العقول و في جميع طبقات المجتمع (الحكام-العلماء-العامة-العبيد) خاصة مع التبشير المستمر بقرب نهاية العالم و اقتراب الملوكوت جعل الجميع يترك الدنيا و يزهدها فيها ؛ فلا علم إلا ما تعلق بالمسيحية و لا لذة سوى لذة تعذيب الجسد و إحتقاره لتحرير الروح حتى تعود إلى أصلها السماوي ، فالكنيسة استأثرت بالمعرفة فكان الرهبان و خدام الكنيسة الفئة المتعلمة الوحيدة في الغرب المسيحي كله ، فضلا عن استئثارهم بالعلاقة بالله و بالكتاب المقدس و ممارسة الوساطة بين العبد و ربه ؛ إذ لم يكن شخص يرى الكتاب المقدس و لا يقرؤه بنفسه خلال القرون الوسطى خاصة بسبب اللغة اللاتينية التي أصبحت لغة دينية مقدسة لا يعرفها العامة فكانت هذه النقطة أول شيء ذكره المصلحون الكاثوليك و كذا البوتستنت و هذا ما يعرف بالتعليم السكولائي (المدرسي) الذي كان المذهب الأوغسطيني أساسه ، كما أن تلك الأديرة أصبحت النواة الأولى للمدارس و الجامعات الغربية المعروفة اليوم و قد تطورت هذه الصُّروح العلمية ، و بعد أن بزغت خيوط من نور الإسلام على الغرب باحتكاك المسيحية بالإسلام بداية من القرن العاشر إلى الثالث عشر في شكل ترجمات لأمّهات الكتب العلمية -خاصة - و البعثات العلمية ، تعلم اللغة العربية - نقل العلوم و المعارف اليونانية إلى اللاتينية و كذا ترجمة القرآن الكريم و غيرها فأدت هذه الإحتكاكات إلى إدراك النقائص الكبيرة في المذهب الكاثوليكي فكانت أولى الإصلاحات الداخلية من قبل الأوغسطينيين من الرهبان الفرنسيين و أهمهم القديس أنسلم (1033-1109م) الذي بقي وفيًا للنموذج الأوغسطيني في تعقل الإيمان رغم إضافته بعض التعديلات عليه و التي عملت على إعطاء الإنسان المسيحي منفسحا للعيش و التفكير و الشعور بذاته و إرادته و حريته ، أما التيار المضاد

للأوغسطينية فكان من الرهبان الدومينيكان و أهمهم القديس توما الإكويني (1224-1274م) صاحب (نظرية اللاهوت الطبيعي) التي أعطت أرسطو الإهتمام في شرح العقائد المسيحية، كما انتشرت الرهبة و غزت أوروبا الغربية منذ القرن الرابع الميلادي لتسيطر على ثلثي القارة (الأراضي - الثروات) إلى غاية عصر الأنوار أين شنت الحرب على الإقطاع و الإقطاعيين .

❖ آثار الفلسفة المسيحية على الجانب الحضاري خلال العصور الوسطى : أثناء سيطرة آراء القديس أوغسطين خلال العصور الوسطى عرف العالم الغربي جمودا لم يعرف مثله من قبل و من تلك الآثار الركود الحضاري في الجوانب العلمية، السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية و العمرانية الا انها لم تكن مظلمة تماما اذ كانت الاديرة منارات للعلم و المعرفة بالتأليف و الترجمة و النسخ إلا أن التقييم عموما سلبى لأن الحياة كانت خارج الأديرة كانت قاسية و ظالمة ليس بسبب زهد الناس فيها و لكن بسبب جشع الكنيسة و رجالها و استيلائهم على الأراضي و الثروات و الخيرات مقابل منح صكوك الغفران و الوعود بالملكوت، ففساد رجال الدين المسيحيين جعل الانسان المسيحي عبدا لهم و قيمته مقتصرة على خدمته البابوية و تجنيده في صفوف جيش المسيح، فإن قسنا حياة تلك الفترة بمعايير اليوم ندرك حجم التخلف و التوحش الذي كانوا يعيشون فيه مفتقرين لأبسط شروط الحياة الكريمة؛ كانت النظافة من المحرمات بل إن المسيحيين يفتخرون فيما بينهم بطول المدة التي لم يستحموا فيها و كانت المجمعات السكنية تعج بالأوساخ و الأمراض حتى أن أعدادا هائلة من الناس قضوا بسبب غياب شروط النظافة، و كذا بسبب تلوث الموارد (الماء - الطعام)، فإن كانت هذه الأوضاع في أساسيات العيش فلا يمكن أن نتحدث عن الآداب و الفنون و العلوم و العمران التي كانت حكرًا على رجال الكنيسة - كما أشرنا سابقا- و هذا يعني ان الكنيسة منعت الإنسان المسيحي من العيش و صناعة التاريخ لتنفرد بالنعم و الملذات و العيش الكريم .

النتائج : من خلال البحث توصلنا إلى النتائج التالية و التي تعرفنا بالأنثروبولوجيا المسيحية وفق عدسة القديس أوغسطين و التي كان لها التأثير الكبير على الإنسان المسيحي و الحضارة الغربية :

* القديس أوغسطين ليس مرجعية لتصور و رؤيا كبرى للعالم و الإنسان و العلاقة بينهما لأنه مهما بلغت عبقريته فلن يعدو أن يكون جهدا بشريا إلا أن الظروف السياسية و الدينية و الإقتصادية خلال القرن الخامس الميلادي و ما بعده هي التي كتبت السيطرة لأفكاره على العالم الغربي كله و لفترات طويلة فكريا و دينيا مما عاد بالوبال على تلك الفترة لدرجة وُصفت فيها بالظلام أين بلغت قيمة الإنسان فيها أدنى درجات الانحطاط بسبب الإستغلال السيئ لهذه الآراء من طرف الكنيسة و رجالها .

* المذهب المسيحي الكاثوليكي وفق النظرة الأوغسطينية لم يكن النسخة المشرفة و لا المعقولة حقا للدين المسيحي الذي يمكن الإنسان من تحقيق وجوده و تحديد مصيره و إنتاج حضارة مزدهرة في إطار رؤية متكاملة و ذات معنى حقيقي للوجود ، كما أنه لم يحافظ على قيمة الإنسان فيه و لم يأبه بالعمران البشري إلا بقدر ما يمثل معتقداته و يحقق أهدافه مما جعله يستبيح الأرواح و ينشر في الأرض الفساد فيما يخص إجبار الناس على المذهب الكاثوليكي بالقوة و حجره على الإرادة البشرية و تقييده حرية الإنسان الفكرية و العقلية ، مما جعل الأرض بمثابة سجن كبير للإنسان و مكان للعذاب و الشقاء الدائمين بسبب وراثة الخطيئة الأصلية التي أحدثت قطيعة بين الإنسان و ربه و أخرجته من الجنة ليشقى في الأرض و في الآخرة سيكون مصيره الجحيم بلا ريب .

* أما فيما يتعلق بالمنتسبي للمذهب الكاثوليكي فإن الأنثروبولوجيا المسيحية تحد كثيرا من حرية الإنسان المسيحي و قدراته الإبداعية في التصور الأوغسطيني الذي كان من القائلين بنظرية (نهاية التاريخ) مما يحد من قدرة الإنسان على الإنتاج الحضاري و يجعله كيانا جامدا خاضعا لإرادة الله و مجردا من الإرادة و من الرغبات إلا من رغبة النجاة من الهلاك .

* الإنسان وريث الخطيئة و الفساد موجود في طبيعته و لا يمكنه بذلك تحقيق أي نوع من السعادة و النجاح و لا طائل من السعي و العمل و التطوير لأن كل ذلك أوهام و سراب إن لم يربطها بالمسيح و بالإيمان و لا يمكنها بحال من الأحوال تطهير الإنسان من تلك الدناءة التي جُبل عليها إلا بالتعميد ثم الخضوع التام لله ؛ فالإنسان عند أوغسطين أناني و محب للتسلط و الهيمنة و لاهث وراء شهواته و عبد لرغباته الفاسدة و لا يمكنه الإرتقاء و تطهير روحه إلا بقدر ارتباطه بأصله الأول (الله) في محاولة لإستعادة الرداء القدسي و إصلاح العلاقة مع الله و بواسطة هذا الإصلاح وحده تتحقق

سعادته و كماله ، و هذا سيكون في إطار الرهينة و الزهد في الدنيا و ملذاتها المزيفة ، نلاحظ هنا أن القديس أوغسطين لم يتكلم إلا عن تجربته الشخصية فقد كان يقرأ أحداث حياته و تجاربه فيها في ضوء الحقائق المسيحية و هذا واضح في (الإعترافات) و (مدينة الله) ، مما جعل الفلسفة المسيحية للعصور الوسطى تفشل في الوصول إلى سر سعادة الإنسان بسبب تقييدها له و الإنتقاص من قيمته في صناعة التاريخ و الحضارة و ذلك بإخضاعه لنظرة دينية صارمة تجعله متشائما كسولا غير آبه بالحياة و لا بالموت ، لا بالفقر و لا بالغنى قابعا هناك في الزاوية منتظرا حلول الملوكوت الذي قد يكون مختارا فيه و قد يكون مستبعدا منه لأنه ببساطة ليس من يقرر ذلك و ليس هنالك معايير انتقاء واضحة ، فكل الأمر مرتبط برغبة الله و إرادته المطلقة ، فحسب المفهوم الكنسي فإن النشاط الإنساني تسيره العناية الإلهية و عليه فإن الإنسان معنى من صناعة التاريخ .

* لم ير أوغسطين أن جميع الناس يمكن أن يكونوا محظوظين مثله فينتشلهم الله بلطفه من براثن الخطيئة إلى نعيم الخلاص لذلك نجده يشدد على الإنسان و على عدم منحه حرية شخصية و مساحة راحة يمكن ان تجره الى المعاصي فلا يخرج منها ؛ أي انه كان يريد ان يدخل الناس جميعا -و لو بالقوة - في ولاء المسيح و مملكته و لذلك ايضا نجده اعطى الكنيسة تلك الصلاحيات المطلقة لارغام الناس على الدخول في المسيحية ليخلصوا و ينجوا .

* مثلت الكنيسة آراء القديس (اوغسطين) أسوأ تمثيل ؛ إذ اتخذت من آرائه و أفكاره -التي أقر هو شخصيا أنه إنسان قد يصيب و قد يخطئ فيها - اتخذتها دستورا مقدسا حكمت به البلاد و العباد لأزيد من عشرة قرون دون رحمة حيث أرغمت الناس على الإيمان و على العبادة و على التبتل و على العبودية لرجال الدين المتوحشين .

* تأثر الفكر الأوروبي و الغربي كثيرا و سلبيا بالكنيسة و نظامها على مدى القرون الوسطى من القرن 5 الى 13م و لم يتمكن من التخلص من سلطتها و آثارها إلا بصعوبة ، فمنذ القرن 13م بدأت محاولات الإصلاح الداخلية التي قام بها رجال كهنوت مشهود لهم بالعلم و السعة المعرفية و القداسة داخل الكنيسة ، مع أن العالم الغربي يدين بتلك الإصلاحات الدينية الداخلية (الإصلاح البروتستنتي - الإصلاح الكاثوليكي المضاد) للتأثير الإسلامي عليه فرؤيته المتكاملة للوجود الإنساني و الحضارة و المصير جعل المسيحية تراجع نفسها و تستدرك نقائصها ، و لكن التأثيرات السلبية للكنيسة على

الفكر و الحضارة الغربية كانت في التخلي عن الدين و التحول إلى الفكر المادي إما بسبب إعتباره مجرد أوهام أو خرافات و أساطير من إنشاء الإنسان البدائي أو لكونه وسيلة للقمع و الظلم و الإستعباد في يد أصحاب السلطة (الدينية و الزمنية) .

* بعد أن درس العلماء المسيحيون و منذ عصر النهضة آراء أوغسطين رفضوها و تجاوزوها أو غيروا فيها و جددوها و من بعض مظاهر التجديد فيها نجد آراء (القديس بانيفانتورا) صاحب الأوغسطينية الجديدة إذ استبدل الكثير من آراء القديس أوغسطين خاصة المتعلقة (بالعناية الالهية و اللطف الإلهي) ليفسح المجال قليلا للإنسان المسيحي للعمل في التاريخ و ذلك بتبني بعض من آراء أرسطو ، و كذا القديس (توما الإكويني) الذي غيّر النظام الأوغسطيني ككل و جدّد السكولائية حيث عمل على تبني آراء أرسطو كلها و الابتعاد عن المثالية الأفلاطونية تماما .

* أحدثت الحضارة الغربية شرخا عميقا في كيانها بسبب تحليلها التام عن الجانب الروحي فيها (الدين) و استبداله بالفلسفات و الأيديولوجيات الوضعية الجامدة ، و كذا تحويل الإهتمام بالإنسان و الحضارة إلى الجانب المادي و التقني و إهمال بل و إنكار الجانب الروحي و العاطفي للإنسان مما أوقعه في حبال الإلحاد و المادية و العلمية و غيرها من الأزمات الروحية و المادية التي يعيشها اليوم ، فالحضارة لا تقتصر على الجانب المادي و التقني بل تتجاوزه أيضا إلى الجانب الروحي و العاطفي و القيمي ، فالحضارة كالشجرة الباسقة لها جذورها التي تقف عليها و هي (الدين-الاخلاق-القيم) و لها جذعها الذي هو (العلم و المعرفة و الاكتشافات) و لها اوراق و ثمار و هي كل وسائل الرفاهية و الحياة الكريمة و التطور التقني و التكنولوجي .

المراجع :

- 1 Phillip, S. (n.d.). *Nicene and Post-Nicene Fathers* (Vol. V1).
- 2 Questen, J. (n.d.). *Patrology* (Vol. V4). (P. Solari, Trans.) USA: Library of Congress.

- 3 الأب فاضل سیداروس. (2013). *الأنثروبولوجيا المسيحية* (الإصدار ط1، المجلد ج1). مصر : دار المشرق .
- 4 إيتين جيلسون. (2011). *روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط* (الإصدار د ط). (ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، المترجمون) مصر : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- 5 إريك أوزبورن. (2018). *فلسفة التاريخ عند آباء الكنيسة* (الإصدار ط1). (ترجمة عادل زكري، المترجمون) الإسكندرية ، مصر: مدرسة الإسكندرية .
- 6 برتراند راسل. (2010). *تاريخ الفلسفة الغربية* (الإصدار د ط). مصر: الهيئة العامة للكتاب .
- 7 ترانثي و ماركوس. (1997). *مقالات في الفلسفة العصور الوسطى* (الإصدار د ط). (ترجمة ماهر عبد القادر، المترجمون) مصر : دار المعرفة الجامعية .
- 8 حسين مؤنس. (يناير 1978). *الحضارة دراسة في أصول و عوامل قيامها و تطورها*. الكويت : المجلس الوطني للثقافة و الفنون .
- 9 رائد عبد الله الراشد. (2020). *دراسات في فلسفة التاريخ*. الموصل ، العراق : مكتبة الميثاق للطباعة و النشر .
- 10 زينب الخضير. (1998). *لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين* (الإصدار د ط). مصر : دار قباء .
- 11 محمد هادي طلعتي. (2022). *الهيومانية دراسة تحليلية نقدية للأسس و الجذور* (الإصدار ط1). (تعريب حسين علي مطر، المترجمون) النجف ، العراق : المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية .
- 12 ملطي تادرس يعقوب. (2008). *نظرة شاملة لعلم الباثولوجي خلال ستة قرون الاولى*. (كنيسة الشهيد مار جرجس، المحرر) الإسكندرية ، مصر.